

الأبعاد السياسية والحضارية لأفكار خير الدين التونسي وصداها مشرقا ومغربا

The Political and Civilizational Dimensions of Khayr al-Din al-Tunisi's Thought and Its Resonance in the Mashriq and the Maghreb.

الاسم الكامل للباحث الثاني مؤسسة الانتماء كاملة، (الدولة)، البريد الإلكتروني	أ.د/ عبد القادر خليفي قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف المسيلة. الجزائر abdelkader.khelifi@univ-msila.dz
--	--

تاريخ الاستلام: 2025/05/ 27 تاريخ القبول: 2025/12/ 20 تاريخ النشر: 2025/12/ 22	
الملخص تشهد هذه الورقة العلمية المتواضعة الوقوف على أهم الأطروحات السياسية والحضارية التي عرضها المصلح التونسي خير الدين باشا 1822 – 1890م، وتضمنها مصنفه الشهير أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، في صيغة برنامج لتحديث موطنه تونس، والنهوض بواقع الأمة الإسلامية عبر إعطاء أهمية خاصة لإصلاح أحوال الدولة العثمانية، بوصفها المظلة السياسية والروحية لها، منطلقا من فكرة التوفيق بين الخصوصيات المحلية ومقومات التطور للحضارة الغربية، وهي التجربة التي لقيت أصداء إيجابية لدى معاصريه من النخب على مستوى المغرب والمشرق، وأضحى بمقتضاها رمزا إصلاحيا ورائدا تفضويا في المنطقة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي.	
الكلمات الدالة النهضة – خير الدين باشا – الإصلاح – تونس – أقوم المسالك – أوروبا	
Abstract:	This modest scientific paper seeks to identify the most important political and civilisational theses presented by the Tunisian reformer Khair al-Din Pasha (1822-1890), and included in his famous work, Aqum al-Maslak fi al-karam al-mamalak, in the form of a programme to modernise his homeland Tunisia and advance the reality of the Islamic

nation by giving special importance to reforming the conditions of the Ottoman state, as its political and spiritual umbrella. The Ottoman Empire, as its political and spiritual umbrella, based on the idea of reconciling local specificities with the elements of development of Western civilisation. This experience resonated positively with his contemporaries among the elites in the Maghreb and the Levant, and made him a reformist symbol and a pioneer in the Arab region during the nineteenth century.

Keywords:

Renaissance – Khayr al-Din Pasha – Reform – Tunisia – *Aqwam al-Masalik* – Europe

1. مقدمة:

حملت حقبة الإصلاح والنهضة خلال القرن التاسع عشر في طياتها أسماء لامعة تركت بصماتها قوية على مستويي الفكر والعمل، حيث وضعت يدها على مكامن الخلل في مجتمعاتها وبلدانها، وأظهرت فهما عميقا وأحيانا استباقيا لطبيعة الصراع ومآلاته المستقبلية بين القوى المتحكمة في العالم في عصرها، فبادرت إلى طرح تصورات وحلول للإشكالات المتعددة التي كانت تحيط بالمجتمعات العربية بل والإسلامية على امتداد جغرافيتها، استهدفت من خلالها إعادة بعث الإنسان العربي والمسلم من سباته وانتشاله من انعزاله، ودفعه إلى أخذ موقعه على خريطة الحضارة العالمية بعد قرون من الانكفاء وفقدان الدور والتأثير، ولعل من أبرز الذين رفعوا راية الإصلاح ورسموا معالم النهوض متسلحين بمرجعية محلية أصيلة وبفكر تنويري غربي كان خير الدين باشا التونسي الذي تمثل حياته نموذجا لرجل الدولة والمفكر المتفاعل مع واقعه بما كرّسه من جهود وما طرحه من محاولات سعيًا لقيادة سفينة الإصلاح إلى مرفأ الأمان.

فمن يكون الرجل؟ وما هي مرتكزات أطروحته للنهضة؟ وما قيمة الأفكار التي طرحها على المستويين السياسي والحضاري؟ وهل فعلا كان عنوانا للإصلاح؟ وما هي الأصداء التي تركها لدى النخب المعاصرة ببلاد المغرب والمشرق؟

تهدف هذه الورقة إلى الوقوف على الآتي:

- معرفة المسار التكويني والوظيفي الذي صنع شخصية خير الدين.
- إبراز قيمة المساهمة الإصلاحية التي طرحها الرجل، وطبيعة التحديات التي كانت تواجهها.
- عرض مرتكزات هذا السياسي المصلح فيما يتعلق بمسألة الاقتباس بوصفها من المسائل المثيرة للجدل في وسطه ومحيطه.
- بث الأصداء التي خلفتها الأفكار التي بسطها لدى معاصريه من النخب.

2. من اسطنبول إلى تونس.

لقد أحاط الغموض بمراحل حياة خير الدين الأولى، وتصادف الباحث في تنشئته شح المعلومات المتعلقة بمرحلة الصبا، فجاءت الكتابات التي أرخت لميلاده متضاربة، وقد يكون أرجحها عام 1822م¹، وباتت مذكراته المعين الوحيد في الإشارة إلى أصوله، فقد سجل بأنه شركسي الأصل، فقد عائلته صغيرا بعد اختطافه في إحدى الحروب الروسية العثمانية، وأنه قد عاش مراحل طفولته في خدمة تحسين بك أحد الأعيان بالأستانة الذي اشتراه في سوق العبيد ثم حملته الأقدار ليصير مملوكا لباي تونس ويستقر به المقام في حضرته عام 1839م، ومن هنا بدأت التحولات وارتسمت آفاق المستقبل في مسيرة حياته فقد أصبح في رعاية القصر وانفتحت له أبواب التعليم والتكوين، وحاز المناصب والمسؤوليات²، ففي المجال المعرفي، درس

بعض العلوم اللغوية والإسلامية، غير أن تكوينه الأساسي كان في ميدان الحربية، حيث عمل الباي على خوض تجربة لتحديث جيشه بالاستعانة بالخبرة الفرنسية، الأمر الذي مكن خير الدين من الاحتكاك بعدد من الفنيين الفرنسيين، فكان أن أتقن فن العسكرية الحديثة وتعلم اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة التركية، وهذه الازدواجية في التربية بين الطابعين المدني والعسكري قد أعطته سمة المثقف المطلع، ومنحته خاصية الانضباط وحب النظام والصلابة في الرأي.³ وفي الميدان المرتبط بالوظائف والمهام، فقد خدمته مؤهلات عديدة على رأسها ألمعيته وذكاءه ليتدرج في المناصب، ويصبح ضمن الدائرة المحيطة بالباي، الذي اصطحبه معه في رحلته إلى فرنسا عام 1846م، واسند إليه مهمة في غاية الخطورة والحساسية وتتعلق بمباشرة إجراءات المتابعة واسترجاع الأموال في إطار ما عرف بقضية محمود بن عباد⁴، وهي المأمورية التي استمرت بين سنوات 1853-1856 بباريس وقد نجح فيها جزئيا، لتسند إليه وزارة البحرية عام 1857، ثم رئاسة المجلس الاستشاري الأكبر عام 1861، وشارك بقوة في إعداد الوثيقة التي تمخض عنها دستور عام 1861 وهو أول دستور في العالم العربي والإسلامي يظهر للوجود، وإذا كان خير الدين قد أثر الابتعاد عن الواجهة السلطوية لسنوات، بعد مواجهته لمعارضه لنهجه الإصلاحية ولضغوطات وصراعات العصب داخل القصر⁵، فإن علاقته بالباي لم تنقطع وظل دوره الاستشاري حاضرا، وسفرياته الدبلوماسية قائمة، وقد كانت هذه الفترة التي قاربت عقدا من الزمن فرصة سانحة لتعزيز مداركه ومطالعاته الفكرية واشباع رغباته في الاكتشاف، حيث ساح خلالها في العديد من الجغرافيات الأوروبية مما مكنه من مراكمة معطيات هامة ومعارف جمة وظفها في صياغة مؤلفه الذائع الصيت أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك الذي ظهر عام 1867م، وقد اختتم سلسلة وظائفه العليا بتولييه رئاسة وزراء تونس بين أعوام 1873-1877⁶، حيث قام طوال مدة أربع سنوات بإجراء إصلاحات

عدة، شملت الاهتمام بالوقف حيث أسس جمعية لإدارة الأوقاف وعمل على مباشرة إصلاح التعليم الزيتوني، وسنّ عدة نصوص تنظيمية في هذا المجال وكان من أهم ما أقدم عليه تأسيس المدرسة الصادقية نسبة إلى الصادق باي عام 1875م وهي أول مدرسة حديثة في تونس تدرس العلوم العصرية كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم العربية والشرعية وبجانبهما تعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية، وبعث مكتبة أهدها ألفا من كتبه، وجمع لها ما تنأثر من مؤلفات في المساجد، وألقى عناية لمطبعة الدولة، فأوكل لها نشر الكتب الأدبية والعلمية،⁷ كما سعى في إحياء الصناعات المحلية وإنماء التجارة الوطنية، وعمل على تطوير الفلاحة وتشجيع زراعة الزيتون والنخيل، وأهتم بترقية الحياة الصحية للسكان، ولم يأل جهدا في تمتين علاقات تونس بالبلاد الأوربية.⁸

في عام 1877م أبعد من دائرة السلطة في تونس، وأصبح محل دسائس ومؤامرات ففضّل الانتقال إلى عاصمة الخلافة، وتزامن تواجده هناك مع إمساك السلطان عبد الحميد بزمم الأمور، حيث أعجب بمبادراته فعينه صدرا أعظم سنة 1878م، غير أنه لم يمكث سوى بضعة أشهر في هذا المنصب، حيث ساهمت عدة وقائع في إبعاده عن المشهد واختتم حياته منزويا بإقامته باسطنبول حتى وفاته عام 1890م.⁹

3. خير الدين والإصلاح: دوافع وأطروحات.

تحمل الكثير من الأدبيات في طياتها عبارات الثناء والإشادة بالرجل، فكتابه لدى فهمي جدعان يكشف عن عقل مستنير، يبحث عن موقف يقفه العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إزاء المدنية الأوروبية، موقف أكثر نضجا من ذلك الذي اتخذته الطهطاوي، وأقرب إلى المحيط العربي الإسلامي الذي تمثله ابن خلدون،¹⁰ فكان بذلك مفكرا جمع بصورة لا نظير لها من قبل بين الأصالة والحداثة فأعطى للإسلام وجهها أكثر حيوية

وإشرافا وفاعلية وقدرة على تخطي الصعاب وعلى التقدم.¹¹ ويرى أحمد عبد السلام، أن أقوم المسالك يدل بمحتواه على أن المثقفين التونسيين لم ينغلقلوا في ذلك العصر على مجتمعهم، ولم يكونوا في برج عاجي بعيدين عن التفكير في الشؤون العامة، بل أولوا اهتماما بالعالم الذي يحيط بهم وخاصة بأوروبا وسياساتها وحضارتها،¹² وأشاد المستشرق الألماني والرحالة المعروف هاينريش فون مالتزان بأقوم المسالك حينما زار تونس قائلا: " بأنه أهم ما أُلِف في الشرق في عصرنا هذا"¹³، وفي نظر سمير أبو حمدان، فإن الرجل قد جمع بين شخصية السياسي وشخصية المفكر بحيث صار صاحب تجربة فريدة بين سائر التجارب التي خاضها رجالات النهضة الآخرون، وأن خطابه انبعث من داخل المؤسسات الرسمية وليس من خارجها، وتميز بصديقة عالية، الأمر الذي منحه لقب أبي النهضة التونسية الحديثة بجدارة واستحقاق.¹⁴

والحقيقة، أن الصورة القائمة للوضع في تونس، والتي تشير الدراسات إلى أنها كانت مدعاة للقلق، وتؤكد الضرورة الملحة للمراجعة العميقة لشؤون البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية،¹⁵ قد كانت محركا لخير الدين لصياغة برنامج نهضوي لخصه في مصنفه الشهير الأنف الذكر، الذي صدر باللغة العربية عام 1867م، ثم تلتها ترجمة لمقدمته إلى الفرنسية صدرت بباريس عام 1868م، وبعد عقد من الزمن خرجت ترجمة تركية لها، وفي الذكرى المئوية للكتاب عام 1967م نشرت ترجمة انجليزية له، وقد عرّف الرجل سفره هذا بأنه بحث " في أسباب التقدم والتأخر للأمة الإسلامية".¹⁶

بات واضحا أن خير الدين التونسي قد استلهم الأفكار المبثوثة في طياته من المظان الفكرية المحلية، في مضامينها الفلسفية والدينية والتاريخية، واستقاها أيضا من مراجع أوروبية

ذائعة الصيت في السياسة والتاريخ والاقتصاد والقانون،¹⁷ مما جعله يلم بكثير من المعطيات والآراء، ويدرك إلى حد بعيد جوانب الصراع وخلفيات التطور.

لقد أثارت مقدمته بعنوان "الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية" اهتماما كبيرا في ذلك الوقت، ويقول آلبير حوراني: "يبدو أن خير الدين وضع هذا الكتاب وهو على شيء من الاعتقاد أنه يفعل للعصر الحديث ما فعله ابن خلدون لعصر أسبق، فالمؤلفان تونسيان، وضعا كتابيهما في فترة عزلة عن الحياة السياسية وعالجا فيهما كل على طريقته قضية نشوء الدول وسقوطها"¹⁸، ويتضح التأثير العميق بالفكر الخلدوني ذي المنهج العقلاني من الأسطر الأولى التي افتتح بها كتابه حينما ذكر "سبحان من جعل من نتائج العدل العمران وفضل بالعقل الإنسان"¹⁹.

يطرح خير الدين فكرة مهمة للغاية تتعلق بعلاقة الدين والموقع الجغرافي بالتطور أو التخلف، فيؤكد أن التقدم الذي يطبع البلاد الأوروبية لا يرتبط بكونها مسيحية، أو بموقعها في المنطقة المعتدلة بدليل أنها عاشت عصورا من الانحطاط²⁰، ليخلص في نهاية التحليل إلى أن الدول الإسلامية لا يتعين عليها الارتقاء في الصليب حتى تتحقق لها النقلة النوعية وإنما عليها فقط أن تتبنى ما يعادل المؤسسات الإسلامية القديمة من مؤسسات أوروبية حديثة، على غرار الوزارات المسؤولة، والبرلمانات التمثيلية، وحرية الصحافة، وعلى هذا الأساس يكون تبني المؤسسات الأوروبية تطبيقا لروح الشريعة، وتحقيقا لغايتها،²¹ وهذا الموقف يتناغم مع ما طرحه أحمد فارس الشدياق الذي تناول النظريات الغربية التي تفسر حركة التاريخ بمقتضى الموقع الجغرافي، أو تصنف العقول وطرائق التفكير تبعا لقانون الوراثة والأجناس وطبيعة الدين، حيث تصدى لها بالنقد والتفنيد، مبينا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن معيار التقدم هو التفوق العلمي

وأن التحضر يقوم على التنكر للدين والقيم الروحية وتبني النزعات المادية، ومشيدا بالأمم الشرقية التي وازنت بين متطلبات الجسد وحاجيات الروح، وبين الأخلاق والعلم، فكان إذن حذرا في الأخذ عن الغرب.²²

وقد فسّر ضعف الممالك الإسلامية بحالة الاستبداد وغياب إطار قانوني يقيّد سلطات الحاكم، لذلك دعا إلى تقييد تلك السلطة، وتمتيع الناس بالحريات السياسية والشخصية، حيث أن الحقوق المدنية هي دعامة الدولة الحديثة، لينتهي إلى أن خلاص الأمة الإسلامية متوقف على إحداث التغيير في أنظمة الحكم، والانتقال التدريجي إلى النموذج الغربي الكفيل بالوصول بالبلدان إلى بر الأمان، وإشاعة رفاة المجتمع.²³ أي ما يعرف بالمساءلة الأمر الذي يعكس وعيا ثاقبا بأزمة المؤسسة السياسية بحكم التجربة التي راكمها في سدة الحكم مسؤولا أو قريبا من صانع القرار على المستويين المحلي في تونس والمركزي في عاصمة الخلافة العثمانية.²⁴

ومن المسائل التي حازت اهتمام الرجل، ما تعلق بمصير الدولة العثمانية، وهي تواجه مخلفات القروسطية في التفكير والممارسات، وتنامي الأطماع الأوربية في كيانها، فكان من أنصار استمرار السلطنة، وبقاء الخلافة في البيت العثماني، مبديا حرصه على وحدتها ومعارضاً لكل حركة استقلالية، ذلك أن بقاءها متماسكة في نظره يمثل صمام حماية للمسلمين من المطامع الغربية، الأمر الذي يعكس رؤيته الإستراتيجية لأحوال العصر.²⁵

وفي سياق معالجته لقضية الإصلاحات التي عرفت بالتنظيمات الخيرية، فقد وقف موقفا متأرجحا حذرا بين الإعجاب والانتقاد المرن، فقد أثنى في فترة معينة على المبادرات التي تمت وتحمس لها، واعتبرها بداية النهضة الشرقية الحديثة، ورأى بأنها لا تتنافى والشريعة،²⁶ وفي موقف لاحق، تحدّث عن محدوديتها وعدم صلاحيتها بالكيفية التي تمت حيث كتب: الآتي: "

مبدئيا يستحيل غرس مؤسسات بلد في بلد آخر، حيث تختلف طباع الناس وعاداتهم وثقافتهم، وكذلك ظروفهم المناخية... منذ أربعين سنة حاولت العديد من المرات الحكومات التي توالى على الدولة العثمانية إعادة تنظيم المؤسسات السياسية والإدارية والقضائية للبلد غير أن جهودها لم تنفض إلى نتيجة".²⁷

تصدى مشروعه للنهوض لثلاث قضايا أساسية، قدّم لها حلولاً تناسبها وتمثل في:

- مسألة تقدم أوروبا وضرورة الأخذ عنها.
- مشكلة نظام الحكم المطلق الاستبدادي.
- قضية التخلف والانحيار العمراني.²⁸

يرى أحد الباحثين، أن المقاربة التي أقامها التونسي بين منظومتي الفكر السياسي الليبرالي وما يناظرها من أحكام السياسة الشرعية، لم تنتبه إلى اختلاف الفضاء المعرفي لطرفي المقاربة، فالأخيرة قامت ضمن مفاهيم قروسطية، في حين ترعرعت الأولى في عصر الأنوار المستند في مشروعيتها إلى سلطة العقل،²⁹ وفي تقديرنا، فإن الرجل لم يكن يغرد خارج السرب ذلك أن هذا الطرح أي المحاولة التوفيقية، قد وسم أفكار الكثير من المصلحين الذين أفرزهم عصر النهضة، بل أن البعض يعتقد أن المقاربة التي قدمها قد أثرت القاموس السياسي العربي بعدة مفاهيم جديدة تم استعمالها لأول مرة، على غرار كلمة الوطن، والجمهورية، وحقوق الإنسان، والدستور، والحرية الشخصية، والحرية السياسية، وحرية التعبير.³⁰

أيّد خير الدين الاقتباس، وأشار إلى موقف الانفتاح المشروط والتفاعل الإيجابي مع ما حققته أوروبا فقال: " والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخيّر منها ما يكون بحالنا لائقا، ولنصوص شريعتنا مساعدا

وموافقا، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فيها³¹، وقد أورد الكثير من الأدلة العقلية والنقلية التي تعالج هذه المسألة ولاسيما في شقها السياسي، فمن البراهين العقلية قوله: "لا يتهيا لنا أن نميز ما يليق بنا...إلا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا لاسيما من حفّ بنا، وحلّ بقرنا".³² وهنا يتطابق مع رؤية رفاة الطهطاوي للأمر، الذي أيد سياسة الانفتاح على الغرب، واستنكر موقف دعاة العزلة، وقد بيّن أهمية التواصل بين الشرق والغرب فكتب: "إن مخالطة الأعراب لاسيما إذا كانوا من أولي الأبواب تجلب للأوطان المنافع العمومية...والبلاد الإفريقية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر الإنسان أنها تجلب الأُنس وتزين العمران".³³

وفي إطار تصديه للرافضين أو المترددين بشأن الأخذ عن المدنية الغربية، تساءل متعجبا من موقفهم المتناقض، إذ كيف يضعون حاجزا أمام جلب التنظيم وتطوير الإدارة وضبط العدل من جهة، بينما يقبلون ويتنافسون في اقتناء واستعمال الملابس والأثاث والمخترعات من جهة أخرى، ليخلص إلى القول: أنفتح الباب للأخذ منهم فيما لا ينفع ونغلقه أمام ما ينفع استنادا إلى خرافات وأوهام³⁴ وقد حدد الأطراف التي رأى أنها عوائق في طريق الاقتباس وهي:

- بعض علماء الدين المتزمتين.
- بعض رجال السياسة ممن يتمسكون بنظام الحكم المطلق.
- العامة من المسلمين الذين يبادرون بإدانة كل جديد ولو كان نافعا.³⁵

ومن الملاحظات التي وقف عندها المتأملون في أفكار التونسي، أنه رغم معاصرته لظهور التيارات المختلفة في أوروبا على غرار الاشتراكية والقومية والديمقراطية والجمهورية إلا أن

طرحه لم يعر اهتماما للفكر الاشتراكي الذي بات يلقي الاستقطاب تدريجيا، وهو الذي أصدر كتابه أقوم المسالك بالتزامن مع طبع الجزء الأول من رأس المال لكارل ماركس ولم يساند الأطروحة القومية في البلاد الإسلامية رغم وعيه بأزمة الخلافة العثمانية،³⁶ كما لم يتحمس للنظام الجمهوري، وهو الذي تحدث على أن الأوربيين يعتبرون الجمهورية من النظم السياسية الصالحة، بل كان يرى أن الملكية المقيدة بالدستور والمجالس هي النظام الأمثل³⁷، وقد طاولته سهام العتاب على تقاعسه عن القيام بمساع لمموسة لإعادة الحياة الدستورية حينما صار رئيسا للوزراء في تونس عام 1873م، غير أنه شرح المسألة بالتأكيد على أن نجاح التنظيمات السياسية يتوقف على أمرين: إما أن يكون تأسيسها من الراعي، أو أن تطلبها الرعية، والأمران مفقودان في تونس.³⁸

من المعاني التي حازت اهتمام الرجل بشكل لافت مفهوم الحرية، ففي المقدمة تداول اللفظ عشرات المرات، وقد عني بتفسير اللفظ ومعانيه الأصلية والفرعية عند الأوربيين في زمانه وعقد لذلك فصلا خاصا، حيث قسّم الحرية إلى شخصية من جهة وسياسية من جهة أخرى فالشخصية هي ما يعرف اليوم بالحرية المدنية، وعرفها خير الدين بأنها " إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته بأبناء جنسه لدى المحاكم

39. "

والحرية السياسية، وهي مشاركة الرعايا للحكام في مناقشة المسائل المتعلقة بادرة البلاد، وتكون بانتخاب ما يعرف بمجالس النواب من ذوي المؤهلات، ويقابلها في مجتمعاتنا الإسلامية ما يدعى بأهل الحل والعقد وإن لم يكونوا منتخبين من الأهالي⁴⁰، وقد اهتم بمظهر ثالث للحرية زيادة على بعديها الشخصي والنيابي، وهو ما يعرف اليوم بحرية التعبير والنشر

حيث قال: " وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعة، وهو أن لا يمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجزنالات التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها "، وقد أقر التونسي بأن هناك تفاوت بين البلاد الأوروبية في استخدام هذه الحرية بين الإطلاق والمشروطة، بحسب خصوصيات كل مملكة وشعب.⁴¹

ختم خير الدين مقدمته الإصلاحية بمصارحة معاصريه بأن قضية الإصلاح لم تعد قضية اختيارية، ونقل عن بعض أعيان أوربا قولهم: " إن التمدن الأوروبي تدفق سبيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا إذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاحهم من الغرق ".⁴²

ومن المسائل التي طرقها فكرة حتمية التعايش بين الحضارات، وضرورة الترابط بين المجتمعات، بحيث لا مكانة للعزلة والانغلاق على الذات، ورأى أن العالم يتحول شيئا فشيئا إلى قرية تتبادل فيها الشعوب الخيرات والمفاهيم والثقافات⁴³، وفي هذا المضمار يكتب: " إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان، لم نتوقف أن نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة ".⁴⁴

4. صدى دعوة خير الدين مغاريا

1.4. في الجزائر.

في الحقيقة، فإن اطلاع الجزائريين وغيرهم على أفكار خير الدين المبثوثة في كتابه تشكل مسألة مهمة جدا، ومما لا ريب فيه، فإن مضامين ما طرحه قد عرفت طريقها إلى الجزائر، حيث أن جريدة المبشر وهي الصحيفة الرسمية الصادرة باللسانين الفرنسي والعربي قد خصصت حلقات

للتعريف بأقوم المسالك بداية من الفاتح أكتوبر 1868م، ولما كانت تحظى بالمقروئية من قبل الموظفين في الإدارة الاستعمارية على غرار القضاة والعلماء والمترجمين والقياد، فقد كانت جسرا عبرت من خلاله أفكار الرجل إلى تلك الشرائح⁴⁵ وإن قيام الجريدة بهذا الأمر إنما يعكس الأهمية التي أعطتها للمحتوى ولصاحبه.

ومن العلماء الجزائريين الذين عاصروا خير الدين وأشاروا إلى برنامجه الإصلاحية ولو بشكل عرضي نجد الشيخ عبد القادر المجاوي، حيث ذكره في رسالته المسماة إرشاد المتعلمين الصادرة عام 1877م، وإن لم يقف على تقييم إصلاحاته وأفكاره، غير أنه أورد قصيدة للشيخ إبراهيم سراج المدني⁴⁶ الذي كان مقيما بالحجاز ومعجبا ببعض قادة الرأي في العالم الإسلامي ومنهم خير الدين، الذي اعتبره رمزا ناجحا في العالم العربي، وقد ضمت قصيدته 51 بيتا حيث اعتبرها المجاوي من الشعر الذي يستحق أن يكتب بالحنان على الحناجر، مما جاء فيها:

فيا ليلة قد أوهن السير عزمها ... ظلامك قد أغفى ونجمك ساهر

كأن له مثلي اشتياق مبرح ... تتوق لخير الدين منه المناظر⁴⁷

ومن الجزائريين الذين تفاعلوا مع أطروحة التونسي كان مصطفى بن الخوجة الذي اعتبرها من الآثار النفيسة⁴⁸، وكان قبله حسن بن بريهمات⁴⁹ قد عبر عن إعجابه الشديد في أبيات شعرية أرسلها إلى خير الدين، حيث نوه فيها بشخصية الممدوح وباختياره منهج الإصلاح في السياسة والانتصار للدين والوطن، مبينا أن مضامين أقوم المسالك جاءت متناغمة مع أحكام الشريعة ومراعية أحوال العصر، ولعل الإشادة بمضامين الكتاب تكون قد انتقلت إلى تلامذة الشيخ لاسيما إذا علمنا أنه كان مدرسا مشهورا⁵⁰. ومما جاء في القصيدة المادحة قوله:

لله درك خير الدين من علم ... أبدى منار الهدى للناس في القرن

نهجت نهجا قويا قلّ سالكه... إلى السياسة كي ينجو من الفتن

بينت طرق السداد بل وأقومها ... وقمت منتصرا للدين والوطن

حق على أمة الإسلام شكرهم ... ورعي تأليفكم بالقلب والأذن⁵¹.

ولعل من أبرز الأصداء والاتصالات ما وقع بين الأمير عبد القادر وخير الدين، فقد دلت الوثائق على وجود مراسلات بين الطرفين، وأيضا بين الأمير والعديد من الشخصيات الرفيعة في تونس، من أعيان ووزراء، تناولت موضوع العائلات الجزائرية التي هاجرت واستقرت بتونس لاسيما عقب ثورة المقراني 1871م، وبالنظر إلى مكانة الأمير الجهادية فقد تلقى نسخة من أقوم المسالك هدية من مؤلفه⁵²، وكان رد الأمير الإشادة والتنويه بالكتاب وصاحبه، إذ نظر إليه على أنه يبهر العقول بما تناوله من فنون المعارف وقضايا المعقول والمنقول، وأقرظه بالقول: "ثم إنك حميت ذمار الشرع المحمدي وعصّدته، وقطعت عنه ضرر الملحين وخصّدته، وذلك بما قرّرت من أن الشريعة المطهرة لائقة بكل زمان، صالحة للحكم بما في كل أوان"، وأضاف في رسالة أخرى مثنيا على خير الدين: "قد رفعتم للعدل الراية، وبلغتم من الكمال الغاية، حتى أحبكم البعيد والقريب، ودان بؤدكم المتوطن والغريب"⁵³.

2.4. في المغرب.

لاشك أن أفكار خير الدين قد بلغت ضفاف الأطلسي، وإذا كنا لم نعثر على معطيات تفيد بزيارة الرجل إلى المغرب في مهمات أو غيرها إلا أن المؤكد أن أفكاره قد وصلت هناك ولعل من الإشارات التي حصلناها في هذا الباب، أن الفقيه محمد بن مصطفى المشرفي صاحب كتاب "تحفة الإمام ونصيحة الإسلام فيما يتوقف عليه الخاص والعام"، قد استلهم أفكاره ودعوته إلى

الإصلاح والاقتراس عن الأوروبيين بشكل مباشر من كتاب أقوم المسالك وسار على منواله حيث يبدو جليا تأثيره بالفكر النهضة المشريقي، ومن ذلك الإصلاحات التي تمت في الدولة العثمانية، ومن ثمة، اقترح على السلطان المغربي رؤيته للإصلاح العسكري والمالي والقضائي والإداري، وهو ما يضع هذا الإخباري على رأس رواد النهضة بالمغرب خلال القرن التاسع عشر.⁵⁴

5. صدى دعوة خير الدين مشرقيا

لم يكن المشاركة يجهلون خير الدين، فقد كان كتابه معروفا هناك ووزعت منه العديد من النسخ وتولت صحيفة الجوائب⁵⁵ الصادرة باللغة العربية باسطنبول نشر مقتطفات من مقدمته فاطلع عليها كثير من المثقفين العرب، وقد سعى خير الدين لكي تنتشر آراؤه وأفكاره، فحرص على أن يترجم عمله إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والتركية،⁵⁶ ودلت إحدى المراسلات التي تمت بين الرجل وبين صديقه الجنرال حسين والمؤرخة في 06 جوان 1868م بأن هذا الأخير وفي طريق ذهابه إلى الحج، قد اتصل في مصر برفاة الطهطاوي وتلميذه عبد الله أبو السعود صاحب جريدة وادي النيل، وقد اطلع الرجلان على النص العربي والنسخة المترجمة للفرنسية لمقدمة كتابه، وقد أثنا على خير الدين وعلى الشجاعة التي تحلى بها في إصلاح ما يخالج ضمير الكثير من المسلمين ممن يحبون الإصلاح.⁵⁷

ومن الذين عاصروا خير الدين واحتكوا به، وأشادوا بجهوده في ترقية المجتمع التونسي وبإصلاحاته، كان الأديب فارس الشدياق الذي أثنى أيضا على الرجل لمساهمته الفعالة ماديا وأديبا في طبع كتابيه الموسومين "الواسطة في أخبار مالطة" و "كشف المخبأ عن فنون أوربا" عام 1866م،⁵⁸ وقد دلت العديد من الإشارات على تقاطع المفكرين في التحاليل والرؤى.

6. خاتمة.

في ختام هذه الوقفة المقتضبة مع أطروحة خير الدين التونسي الإصلاحية في أبعادها السياسية والحضارية سجلنا أن الرجل قد أعطى محتوى متميزا في عصره لفكرة الإصلاح والتحديث منطلقا من الواقع المحلي لتونس، ومرتكزا على درايته بحال السلطنة العثمانية وأقاليمها لاسيما العربية، حيث أظهر انفتاحا عقلانيا على الغرب، محاولا انتقاء ما يلائم خصوصيات مجتمعه وأمته الإسلامية على امتدادها، واستطاع أن يقدم مبادرات ومشاريع في غاية الأهمية، في طليعتها المناداة بخلق مؤسسات التمثيل الديمقراطي لتقليص مساحة الاستبداد مستشعرا ضرورة الإصلاحات بوصفها طوق النجاة، وكان حريصا على مسألة وحدة الأمة بدعوته إلى التغيير من الداخل، أي إجراء مراجعات لآليات استمرار حكم الخلافة وسط تحديات خارجية هائلة وقد أبان عن رؤية استشرافية لمستقبل العلاقات الدولية وحتمية ترابطها حينما تحدث عن القرية الكوكبية الواحدة، وهي التي عرفت في النصف الثاني من القرن العشرين بظاهرة العولمة وإذا كانت أفكاره قد واجهت صخرة التزمّت الديني، وعارضتها الفئات المتنفة المهيمنة على المقدرات والثروات، ولم يتحمس لها صناع القرار المستبدون، وأجهضت عليها في النهاية القوى الاستعمارية، لكنها وضعت أرضية مهمة للمهتمين بمصير الأمة، ووجدت أصداء طيبة وحظيت بالإشادة من كثير من المثقفين من معاصريه بالشرق والمغرب.

7. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، (بيروت، لبنان: د.ت).
- أحمد أمين، فيض الخاطر، مؤسسة هنداوي، (المملكة المتحدة: 2012).
- حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الكتب العربية، (تونس: د.ت).
- أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس: 1986).
- خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، (القاهرة، بيروت: 2012).
- سمير أبو حمدان، خير الدين التونسي، الشركة العالمية للكتاب، (بيروت: 1993).
- نازك سابا يارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نوفل للنشر، (د.م: 1992).
- عصمت نصار، مقدمة كتاب: أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوربا، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني (القاهرة، بيروت: 2012).
- عبد الغني عماد وآخرون، الحركات الإسلامية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: 2013).
- منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، (بيروت: د.ت).
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 1996).
- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، (الجزائر: 1906).

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، (الإسكندرية: 1903).
- عصمت نصار، مقدمة كتاب: أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوروب، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني (القاهرة، بيروت: 2012).

● المقالات:

- المؤلف(ة)، عنوان المقال، اسم المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.
- محمد أمزيان، الدولة السلطوية في الوطن العربي: الجذور التاريخية وتشكل النخب السياسية، المجلة الجزائرية للدراسات السياسية، المجلد 07، العدد 01، 2020.
- مجدي عز الدين حسن، النهضة والإصلاح عند خير الدين التونسي، مجلة أبعاد، العدد 07، 2018.
- حسن سليمان، أهم مقومات الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي، مجلة الإتحاف، العدد 102، 1999.
- مسعود ضاهر، مقدمات منهجية لدراسة الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي، مجلة حكماء، د.ع، 2015.
- مواقع الانترنت:

- إبراهيم جدلة، (2020)، خير الدين التونسي والمؤسسات الأوربية، موقع: <https://kharej-serb.com/>، تاريخ الاطلاع 2025/05/18.

8. هوامش:

- ¹ - يكفي للتدليل على الاختلافات القيام بإطالة سريعة على مختلف المنشورات المطبوعة أو تلك المتاحة على الشبكة العنكبوتية لنعثر على سنوات عديدة غير التي رجحنا، لعل من بينها: 1810، 1821، 1820، 1823، 1826م، بل أن تاريخ الوفاة نفسه قد طاوله الاختلاف بحيث أشار البعض إلى عام 1889م.

- 2 - محمد الحداد، ضمن كتاب: خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، دار الكتاب المصري، القاهرة و دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د . ط)، 2012، ص 31.
- 3 - أحمد أمين: فيض الخاطر، ج6، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، (د . ط)، 2012، ص235.
- 4 - محمود بن عياد 1805-1880، شخصية ذات نفوذ بالبلاط التونسي زمن الباي أحمد، الذي حكم بين سنوات 1837-1855م، تولى منصب قابض مال الدولة التونسية عقب تشكيل دار المال سنة 1847، وتمكن تدريجيا من السيطرة على اقتصاد البلاد، جامعا ثروة طائلة قدرت بحوالي ستين مليون ريال، ربط علاقات قوية مع مصطفى خزندار صاحب الخطوة لدى العائلة الحسينية وصهرها الذي تدرج في المسؤوليات حتى بلغ رئاسة الوزراء، فر إلى فرنسا عام 1852م وطلب التجنس بجنسيتها، رفع دعوى قضائية على السلطة التونسية بغرض الابتزاز بتواطؤ مع الفرنسيين.
- 5 - عن ظروف استقالته من الوظائف العليا التي كان يشغلها مطلع ستينيات القرن التاسع عشر، ومواقفه من سياسة الباي ومقربه مصطفى خزندار ولاسيما قضية الضرائب ومسألة الاقتراض من المصارف الأوربية ينظر: أحمد عبد السلام، مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، ص 12 وما بعدها.
- 6 - محمد الحداد، ضمن كتاب: خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص ص 33- 39 .
- 7 - أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د . ط)، (د . ت)، ص ص 168-169.
- 8 - حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية، تونس، ط3، (د . ت)، ص ص 176-177.
- 9 - محمد الحداد، ضمن كتاب: خير الدين التونسي، المصدر السابق، ص 43.
- 10 - فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط3، 1988، ص 123.
- 11 - المرجع نفسه، ص 129.
- 12 - أحمد عبد السلام: مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، (د . ط) 1986م، ص 26.
- 13 - عوض محمد الحسن، " المحقة السودانية "، موقع:
<https://www.sudaress.com/sudaneseonline/14199>، تاريخ الاطلاع 2025/05/20.

- 14 - سمير أبو حمدان: خير الدين التونسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (د . ط)، 1993، ص ص 80-81.
- 15 - أحمد عبد السلام: المرجع السابق، ص 17.
- 16 - محمد الحداد، ضمن كتاب: خير الدين التونسي: المصدر السابق ص ص 47-48.
- 17 - نازك سابا يارد: الرجالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ط2، نوفل للنشر، (د . م)، 1992، ص 24.
- 18 - آلبيير حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798 - 1939، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، (د . ط)، (د . ت)، ص ص 113-114.
- 19 - مسعود ضاهر، " مقدمات منهجية لدراسة الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي "، مجلة حكمة، د.ع، د.م، جوان 2015، ص 157 متاح على موقع: <https://hekmah.org/>.
- 20 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص ص 16-17.
- 21 - آلبيير حوراني: المرجع السابق، ص 118.
- 22 - عصمت نصار، مقدمة كتاب: أحمد فارس الشدياق: كشف المخبأ عن فنون أوروبا، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د . ط)، 2012، ص 38.
- 23 - عبد الغني عماد وآخرون: الحركات الإسلامية في الوطن العربي، ج1، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (د . ط)، 2013، ص 54.
- 24 - محمد أمزيان، " الدولة التسلطية في الوطن العربي: الجذور التاريخية وتشكل النخب السياسية"، المجلة الجزائرية للدراسات السياسية، المجلد 07، العدد 01، المدرسة الوطني العليا للعلوم السياسية، الجزائر، جوان 2020، ص 09.
- 25 - نازك سابا يارد: المرجع السابق، ص 42.
- 26 - محمد الحداد، ضمن كتاب: خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص 59.
- 27 - المصدر نفسه، ص ص 43-44. نقلا عن: خير الدين التونسي: مذكرات خير الدين، تحقيق وتعريب محمد العربي السنوسي، بيت الحكمة، تونس، 2008، ص 148.
- 28 - فهمي جدعان: المرجع السابق، ص 145.

- 29 - مجدي عز الدين حسن، " النهضة والإصلاح عند خير الدين التونسي"، مجلة أبعاد، العدد 07، مختبر الأبعاد القيمة للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر، جامعة وهران 2، ديسمبر 2018م، ص ص 41-42.
- 30 - إبراهيم جدلة، " خير الدين التونسي والمؤسسات الأوربية"، موقع: <https://kharej-serb.com/>، تاريخ الاطلاع 2025/05/18.
- 31 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص 06.
- 32 - حسن سليمان، " أهم مقومات الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي"، مجلة الإنخاف، العدد 102، تونس، يونيو 1999، ص 36.
- 33 - منذر معاليقي: معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت، (د . ط)، (د . ت)، ص 37.
- 34 - أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 160.
- 35 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص ص 51-53.
- 36 - المصدر نفسه، ص 29.
- 37 - المصدر نفسه، ص 71.
- 38 - ألبيير حوراني: المرجع السابق، ص ص 120-121.
- 39 - أحمد عبد السلام: المرجع السابق، ص ص 128-129.
- 40 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص ص 116-117.
- 41 - أحمد عبد السلام: المرجع السابق، ص 130.
- 42 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص ص 68-69.
- 43 - سمير أبو حمدان: المرجع السابق، ص 86.
- 44 - خير الدين التونسي: المصدر السابق، ص 51.
- 45 - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1996، ص 163.

- 46 - لم نثر على معلومات تترجم له، سوى أنه من مواليد المدينة المنورة وأنه كان حيا عام 1875م، درس بعض كتب الفقه والنحو والمنطق واللغة ودواوين العرب بمسقط رأسه، ثم التحق بمدرسة الطب بقصر العيني في القاهرة وتخرج فيها. ينظر: <http://www.almoajam.org/lists/inner/2516>
- 47 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 164-165.
- 48 - المرجع نفسه، ص 167.
- 49 - أصيل العاصمة، ولد عام 1821م، من أصول أندلسية، نال قسطا من التعليم التقليدي وانتسب أيضا إلى المدرسة الفرنسية مارس عددا من الوظائف من بينها مديرا للمدرسة العربية الفرنسية بالجزائر العاصمة، كما شغل منصب قاض بالبلدية، توفي عام 1884م
- 50 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 166.
- 51 - أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص 114.
- 52 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 168.
- 53 - محمد بن الأمير: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية، الإسكندرية، (د . ط)، 1903، ص 197.
- 54 - موقع: <https://www.alhadathlifriqui.com/?p=70619>، تاريخ التصفح 2025/04/22م.
- 55 - جريدة عربية أسبوعية أصدرها أحمد فارس الشدياق باسطنبول، واستمرت في الصدور بين سنوات 1861-1884م، نالت شهرة في العالم الإسلامي لم تنلها صحيفة سواها منذ إنشاء الصحافة العربية، بلغت من حسن التبويب والإتقان، وبراعة التحرير وجودة الأساليب حدا جعلها أكبر صحف ذلك العهد وأوسعها انتشارا، جعلت مؤسسها معروفا بوصفه صحفيا وكاتبا مرموقا، وفي العام الأخير من وجودها، صدرت في القاهرة، جمع الشدياق لاحقا مقالاته المنشورة في «الجوائب» في كتاب "كنز الرغائب في منتخبات الجوائب".
- 56 - أحمد عبد السلام: المرجع السابق، ص 06.
- 57 - المرجع نفسه، ص 28.
- 58 - عصمت نصار: المرجع السابق، ص 37.